دراسةٌ في إفادةِ أسلوب "لا أقسم"
معنى الإثبات في القرآن ـ موازنةٌ ونقدٌ

سيد أحمد موسوي پناه (الكاتب المسؤول)

أستاذ مساعد في قسم اللغة العربية وآدابها

بجامعة شهيد تشمران أهواز، أهواز، إيران.

عليرضا عزيزي

خريج مرحلة دكتوراة في اللغة العربية وآدابها.

A study on the benefit of the “I do not swear” method, the meaning of proof in the Qur’an, balance and criticism

seyyed Ahmad Mosawi panah

Shahid Chamran University of Ahvaz, Ahvaz, Iran

Email: s.ahmadmosawipanah@scu.ac.ir

Alirezi Azizi

PhD graduate in Arabic Language and Literature

Email: sidmohmmad5922@gmail.com

ملخص البحث

لقد اختلفت ترجيحات المفسرين في أسلوب (لا أقسم) في القرآن كثيرًا إلّا أنّهم يكادوا يطبقوا على أنّ "لا" هي في الأعمّ الأغلب لإفادة إثبات القسم ، وليست لنفيه وأورد كلٌّ منهم الدليل والتعليل لذلك، فمنهم من يرى أنّها صلة لا تؤثر في السلب والإيجاب شيئا ، وآخرون عَدّوها ردًّا لكلام سابق صَدَرَ مِن المشركين أُريد به إنكارُ البعث فجاءت "لا" هذه للرد ، كأنّه قال: ليس كما تزعمون ، أقسم بيوم القيامة، ومنهم مَن جعلها لمجرد الزينة ولا غرض آخر لها..إلخ ، وهكذا فقد تعددت الأقوال ولم نعثر على رأي إذ إنّ غالب ما قيل فيها لا يستقيم في ميزان النقد العلمي ، وإنه مخالف للظاهر وليس هناك ما يقوّيه ويعضده مِن الأدلة. والصواب أنّ هذه الصيغة أي: {لا+الفعل المضارع من جذر"ق س م"+ب} تُعدّ بحدّ ذاتها أسلوبا في العربية معناهُ الإثباتُ ، وإن سبقته "لا" إلّا أنّها ليست لنفيه ويجب ألا يقاسَ عليه قولهم: {لا أضرب ولا أقتل ولا أشرب..} ، تهدف هذه الدراسة عن طريق الموازنة بين الأقوال ثم نقدها ، وذلك عبر المنهج الوصفي- التحليلي أن تميط اللثام عن وجوه الضعف في ما ذكره النحويون ثمّ تقرر الرأي الصائب ، والأصح بالبرهان والدليل القاطع.

الكلمات المفتاحية: لا أقسم، إفادة النفي، إفادة الإثبات.

Abstract

Analyzing the meaning of "La-ughsemu" style in the holy Quran. The study deals with the veabal phrase "La uqsimu in the Quran. Lcounted the verses in which this form occurred and found them to be eight verscs. They are either use in the context of proving the the possibility of resurrection in some or the divinity of the Quran in others. I also clarified the views of the interpreters and linguists both ancient and contemporary.I likewisc discussed them and their evidence and pointed out the more plausible interpretaions in this issue.

Keywords: I do not swear, statement of denial, statement of proof.

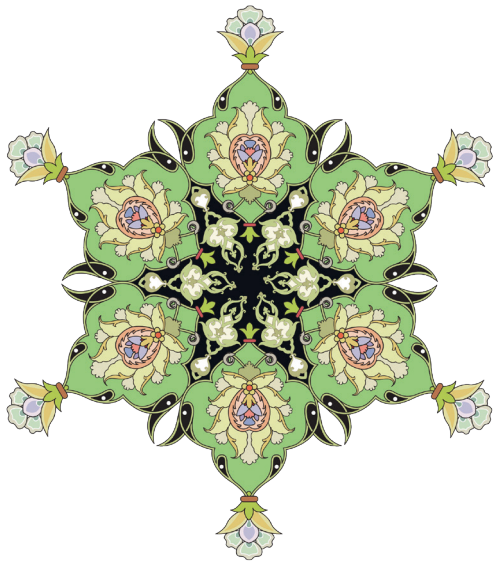

أسئلة البحث:

ما المعنى الصائب لقوله {لا أقسم} في القرآن الكريم؟

ما دلالة "لا" في أسلوب {لا أقسم}؟

الفرضيات:

أجمعَ النحاة أنّ هذه الصيغة تفيد إثبات القسم رغم خلافهم في تخريجها وتعليلاتهم لحرف"لا" الذي سبقها.

تعددت آراء المفسرين في نوع "لا" هذه ، لكن أصح الأقوال أنّ {لا أقسم} يُعَدّ أسلوبًا في العربية يُفيد معنى الإثبات يأتي به المتكلم في مستهل خطابه.

سابقة البحث:

هناك الكثيرٌ من الدراسات التي تطرقت إلى (القَسم) في القرآن الكريم ، وعنيت بمعانيه وأغراضه البلاغية ، كما أنّ هناك عدداً من المفسرين والباحثين درسوا "لا" في "لا أقسم" غير أنَّهم لم يدرسوها دراسة نقديّة ، فقد اكتفوا بأقوال المفسِّرين القدماء ولم يضيفوا عليها ، كما أنّ اللافت لم يُعقد لها دراسة خاصَّة لصيغة "لا أقسم".

وأشهر الدراسات التي سبقت البحث:

١- لا في القرآن الكريم- دراسة نحوية دلالية للباحث: نعيم صالح سعيد نعيرات.

٢- صيغة نفي القسم في القرآن الكريم دراسة تحليلية دلالية للباحثة: سمية محمد عناية حاج نايف.

٣- صيغة لا أقسم في القرآن الكريم عند المفسرين للباحث: نايل أبو زيد.

المقدمة

تميّزَ القرآن الكريم بروعة إيجازه ، ودلالة إعجازه فأبكمَ أهل الفصاحة ، وتحداهم بأن يأتوا بمثله لكنهم عجزوا عن الإتيان بمثله ، ولا ريب -وبشهادة كتب التاريخ والأدب- أنّهم كانوا يفهمون مقاصده ويستلذون بعذب مورده حتى اضطرّ زعمائهم وكبارهم خشية منه أن يدعو الناس أن يتركوا سماعه ؛ وذلك بذريعة أنّه سِحرٌ وأن مَن يسمعه يتأثر به وينجرّ إليه ، ومع مرور الزمان وتقادم العهد ظهرت أجيالٌ لا يمكنها أن تفهم كلّ مقاصده، ولا يمكنها أن تدرك روعة بيانه، فالتجأوا إلى كتب التفسير لبيان معانيه وبلاغته وغريبه غير أنّ كتب التفسير لم تستطع في بعض المواطن كشف المراد أيضا ، ممّا دعا الباحثين أن يواصلوا المحاولات ليتوصلوا إلى ما لم يُدرك من قبل ولا من بعدُ ، ومن الآيات التي خفي معناها على كثير منهم هي صيغة "لا إقسم" ودلالة حرف "لا" فيها وقد حاول البحث تسليط الضوء على هذه المعاني، واستخراج دلالات هذه الصيغة.

﴿وَلَا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ﴾(القيامة/ ١).

اختلف المفسرون والنحاة في صيغة {لا أقسم} إلى اتجاهات عِدّة:

الاتجاه الأول:

إنّها تفيد إثبات القسم وإنّها ردّاً لكلام سابق ، وأشهر من مَالَ إلى هذا الرأي:

١- الطبري: "وأولى الأقوال في ذلك عندي بالصواب قول مَن قال: إن الله أقسم بيوم القيامة، وبالنفس اللّوامة، وجعل "لا" ردًّا لكلام قد كان تقدمّ من قوم، وجوابًا لهم ، وإنّما قلنا ذلك أولى الأقوال بالصواب ؛لأنّ المعروف من كلام الناس في محاوراتهم إذا قال أحدهم: لا والله، لافعلت كذا"[١]

٢- الفراء: "هي ردّ لكلامهم حيث أنكروا البعث كأنه قال: ليس الأمر كما ذكرتم، أقسم بيوم القيامة "[٢]

(١) جامع البيان ، الطبري، القيامة/ ١.

(٢) فتح القدير، الشوكاني، ٥/ ٤٠٢.

٣- السمرقندي: "أجمع أهل التفسير أنّ معناه أقسم ، واختلفوا في تفسير لا قال بعضهم والكلام زيادة للزينة، ويجري في كلام العرب زيادة لا كما في آية أخرى قال: ﴿مَا مَنَعَكَ أَلاَّ تَسجُدَ﴾{الأعراف:١٢} يعني: أن تسجد وقال بعضهم لا رد لكلامهم حيث أنكروا البعث؛ فقال: ليس الأمر كما ذكر ثم قال أقسم بيوم القيامة ويقال معناه أقسم برب يوم القيامة إنّها كائنة"(١)

٤- ابن قتيبة: "زيدت "لا" على نية الردِّ على المكذبين، كما تقول: لا والله ما ذاك، ولو حذفت جاز، ولكنه أبلغ في الرد"(٢)

الاتجاه الثاني:

إنّها صلة وقد وردت على فعل القسم {أقسم} على سبيل التأكيد؛ فإذن مرادها القسم وإن سبقتها {لا}.

١- أبو علي الفارسي: "قال أبو علي من قرأ ﴿لَا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾{سورة القيامة/ ١} كانت لا على قوله {صلة} كالتي في قوله: ﴿ لِّئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ الْكِتَابِ﴾ {سورة الحديد:٢٩}، فإن قلت لا وما ، والحروف التي هُنَّ زوائد إنما تكون بين كلامين كقوله: ﴿ مِّمَّا خَطِيئَاتِهِمْ﴾ {سورة نوح:٢٥} ، و﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ ﴾{سورة آل عمران:١٥٩} ، و ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم﴾ {سورة النساء:١٥٥} و{سورةالمائده:١٣} ولا تكاد تزاد أولًا ، فقد قالوا إنّ مجاري القرآن مجاري الكلام والواحد والسورة الواحد قال: والذي يدل على ذلك أنه قد يذكر الشيء في سورة ويجيء جوابه في سورة أخرى كقوله ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ ﴾{سورة الحجر:٦} جاء جوابه في سورة أخرى ﴿مَا أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ﴾ {سورة القلم:٢} ، فتكون (لا) فصل هي بين قوله لئلا يعلم وبين قوله لا أقسم"(٣)

(١) بحر العلوم، السمرقندي، ٣/ ٥٢٠.
(٢) زاد المسير، ابن الجوزي، ٤/ ٣٦٨.
(٣) الحجة للقراء السبعة، الفارسي، ٦/ ٣٣٣.

٢- ابن كثير: "والصحيح أنَّه أقسم بهما جميعاً"[١]

٣- البيضاوي: "{لا أُقسم بيوم القيامة} إدخال {لا} النافية على فعل القسم للتأكيد شائع في كلامهم"[٢]

قال امرؤ القيس:

لا وَأَبِيكَ ابنَةَ العامري لاَ يَدعَّي القومُ أَني أَفِرِ[٣]

٤- تفسير الجلالين: "{لا} زائدة في الموضعين ﴿أُقسِمُ بِيوَمِ القِيامَةِ﴾{سورة القيامة/ ١}"[٤]

٥- الماوردي: "قوله تعالى: ﴿لا أُقسِمُ بِيوَمِ القِيامَةِ﴾{سورة القيامة/ ١} اختلفوا في "لا" المبتدأ بها في أول الكلام على ثلاثة أقاويل:

أحدها: أنَّها صلة دخلت مجازًا ومعنى الكلام أقسم بيوم القيامة، قاله ابن عباس وابن جبير وأبو عبيدة، ومثله قول الشاعر:"[٥]

تَذكّرت ليلى فاعترَتني صَبابة وكاد ضمير القلبِ لا يتقَطّع

٦- ابن عاشور: "وصيغة {لا أقسم} صيغة قسم، أدخل حرف النفى على فعل {أقسم} لقصد المبالغة في تحقيق حُرمة المقسم به بحيث يُوهِم للسامع أنّ المتكلم يهم أن يقسم به ثم يترك القسم مخافة الحنث بالمقسم به فيقول: لا أقسم به، أي ولا أقسم بأعزَّ منه عندي، وذلك كناية عن تأكيد القسَم"[٦]

٧- ابن عجيبة: "{لا أُقسم} أي:أُقسم. وإدخال "لا" النافية على فعل القسم شائع، كإدخاله على المقسم به في "لا وربك "و"لاوالله"، وفائدتها: توكيد القسم، وقيل :صلة

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ٨/ ٢٧٥.
(٢) أنوار التنزيل وأسرار التأويل، البيضاوي، ٥/ ٢٦٥.
(٣)ديوان امرئ القيس ، ١٠٥
(٤) تفسير الجلالين، المحلي ، ٧٧٨
(٥) النكت والعيون، الماوردي، ٦/ ١٥٠
(٦) التحرير والتنوير، ابن عاشور، ١٩/ ٣٣٨.

كقوله: ﴿لِئَلاَ يَعلَمَ أَهلُ الكِتَابِ﴾{سورة الحديد/ ٢٩}"[١]

الاتجاه الثالث:

أنّها وردت للنفي فعل {أقسم} ، وأنّ الآية لا تريد إثبات القسم وعلى أساس ذلك اختلفت تأويلاتهم:

الزمخشري: "والوجهُ أَن يَقالَ: إنَها للنفَّي، والمعنى: أنَّه لا يُقسمُ بالشَّيء إلاَّ إعظَامًا لَهُ، كَقَولِهِ: ﴿فَلاَ أُقسِمِ بِمَواقِعِ النُّجُومِ وَإِنَّهُ لَقَسم لَّو تعلَمُونَ عَظِيم﴾{سورة الواقعة/ ٧٦} فكأنّهُ بإدخَالِ حَرفِ النَّفيِ يقُولُ: إنّ إعظَامي لَهُ بمعنى: أنَّه يَستَأهلُ فوقَ ذلك"[٢]

الفخر الرارزي: يرفض كونها صلة ؛ لأنّه يرى أن هذا القول يحدث إشكالا "أن هذا التجويز يفضي إلى الطعن في القرآن ؛ لأنّ على هذا التقدير يجوز جعل النفي إثباتا ، والإثبات نفيا وتجويزه يفضي إلى أن لا يبقى الاعتماد على إثباته ولا على نفيه"[٣]

هذا الحرف الذي يدعون فيه أنّه صلة ، وأنّه لا يسلب من صيغة القسم إثباتها فلا يزاد إلا في وسط الكلام فقولهم إن {لا} في أقسم صلة ليس بسديد.

"فإن قيل لا نسلم إنّها إنّما تزاد في وسط الكلام ألا ترى إلى امرئ القيس كيف زادها في مستهل قصيدته:

لا وأبيك ابنة العامري لا يدعي القوم أني أفر

ثم إنَّ القرآن كلَّه كالسورة الواحدة لاتصال بعضه ببعض ، والدليل عليه: أنّه قد يذكر الشيء في سورة ثم يجيء الجواب عنه في سورة أخرى كقوله تعالى: ﴿وَقَالُوا يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ ﴾{سورة الحجر/ ٦} ، ثم جاء جوابه في سورة أخرى وهو قوله: ﴿ مَا أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ﴾؟{سورة القلم/ ٢} وإذا كان كذلك ، كان أول السورة جاريا مجرى وسط الكلام.

(١) البحر المديد في تفسير القرآن المجيد، ابن عجيبة، ٧/ ١٨٥.
(٢) الكشاف، الزمخشري، ٤/ ٦٥٨.
(٣) مفاتح الغيب، الفخر الرازي، ٣٠/ ٧١٩.

والجواب عن الأول: أنّ قوله {لا وأبيك} قسم عن النفي ، وقوله {لا أقسم} نفي للقسم، فتشبيه أحدهما بالآخر غير جائز ، وإنّما قلنا: إن قوله {لا أقسم} نفي للقسم، لأنه على وزان قولنا {لا أقتل ولا أضرب ولا أنصر}، ومعلوم أنّ ذلك يفيد النفي.

وعن الثاني: أن القرآن كالسورة الواحدة في عدم التناقض وأما أن يقرن بكل آية ما قرن بالآية الأخرى فذلك غير جائز لأنّه يلزم جواز أن يقرن بكلّ إثبات نفي في سائر الآيات"[1]

وخلاصة القول عنده أنها "لنفي القسم كأنه قال: لا أقسم عليك بذلك اليوم وتلك النفس ولكني أسألك غير مقسم أتحسب أنا لا نجمع عظامك إذا تفرقت بالموت ، فإن كنت تحسب ذلك فاعلم إنّا قادرون على أن نفعل ذلك، وهذا اختيار أبي مسلم وهو الأصح"[2]

ترجيح الطبرسي في جوامع الجامع:

الطبرسي تبعا لصاحب الكشاف يختار أن تكون {لا} نافية فيقول: "والوجهُ أَن يَقالَ: إنَها للنفَّي، والمعنى: أَنَّه لا يُقسمُ بالشَّيء إلاَّ إعظَاماً لَهُ، كَقَولِهِ: ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَقِعِ النُّجُومِ وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَّو تعلَمُونَ عَظِيمٌ﴾{سورة الواقعة/ ٧٥} فكأنّهُ بإدخَالِ حَرفِ النَّفيِ يقُولُ: إن إعظَامي لَهُ بمعنى: أَنَّه يَستَاهلُ فوقَ ذلك: "[3]

المناقشة والاستدلال:

أكثر هذه الآراء التي ذُكِرت يَرِد على بعضها الوهنُ مِن جهة ، وعلى بعضها مِن أكثر من جهة.

أولاً القول: إنَّها ردّ على كلام سابق فيضعف مِن جهات:

لو كان الكلام ردّا على كلام سابقٍ كما زعموا؛ إذن لاحتيج إلى تبيينٍ أكثرَ ، ولَما جاء هكذا غامضاً لايكاد يتضح لسامعه ، ولا يُفهم مراده لأنَّه كالمبتور الذي لا يُدرى ما هو؟

ثم إنه إذا كان هذا الكلام موجها إلى منكري البعث كما يتضح من سياق الآيات فكيف

(١) المصدر السابق

(٢) المصدر السابق

(٣) جوامع الجامع، الطبرسي، ٦٨٠.

يصح أن يقسم الله تعالى بالقيامة لمن ينكرها بغيةَ أن يثبتها له فكيف يكون هذا؟ ، وكما هو معلوم أنّ المتكلم حين يقسم إنّما يقسم بأمور يقبلها المنكر ليتوصل بها إلى إثبات أمرٍ ينكره.

ثم إنَّه هذا الكلام مكون مِن شقين:

أحدهما: "لا" التي ترد على منكري البعث.

والثاني: هو جملة مستأنفة أخرى تقسم لتثبت لهم أمر القيامة ، فلو كان كذلك لَاحتيج إلى وقف على {لا} حتى لا يظن السامع أنه أراد النفي وإلّا كيف له أن يعرف أنه لم ينفِ القسم بلا؟ ولمّا لم يرد الوقف في مثل هذا الموطن كما ورد في قوله ﴿ بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم ﴾ {سورة المطففين/ ١٤} وقوله تعالى ﴿ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُ عِوَجًا ﴾{سورة الكهف/ ١} عُلم وَهنُ هذا الرأي.

وإذا كانت {لا} ردا على كلامهم و{أُقسم}؛ ابتداء يمين كما رجّح الطبري، لكان الأولى أن يفصل بين {لا} و{أقسم} بالواو كأن يقول: {لا وأقسم} حتى لا يكون كقولهم: {لاعافاك الله} ردًّا لمن سئل: أتبيع هذا الثوب؟ ؛ وذلك لأنّ"المعروف في كلامهم أن "إذا قال أحدهم: لا والله، لا فعلتُ كذا، أنه يقصد ب{لا} رد الكلام ، وبقوله {والله} ابتداء يمين" ، وبشهادة الطبري الذي يرجح أنّها رد لكلام سابق ، فقد ذكر مثالا فُصِل فيه بين {لا} والقسم بالواو ، وبما أنّ القسم هنا من نوع الفعل فالحاجة إلى الواو أزيدُ حتى يزولَ اللبس ، فإذا لم يكن وقف على {لا} ، ولا توجد واو تفصل بين فعل القسم و{لا} فحصول اللبس أكثر في الكلام ، إذ كيف لنا أن نُميّز أنّ الجزء الأول ردّ على المنكرين ، والجزء الثاني جملة أخرى تثبت القسم؟ ، وما يدري السامع أنّ المتكلم لم ينفِ القسم خاصة ، وأنه وارد على وزان قولنا {لا أقتل ولا أضرب ولا أنصر}، ومعلوم أن ذلك يفيد النفي.

وأيضا لو كانت لردِّ كلام سابق لما تكرر في قوله ﴿لَا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ﴾ {سورة القيامة/ ٢} عندما جاء معطوفا على قوله تعالى ﴿لَا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾{سورة القيامة/ ١}.

ثم إنّ على هذا ففيه جمل محذوفة دون أن يترك المتكلمُ قرينة قوية تكشف المحذوف ، وهذا النوع من الحذف بخلاف ديدن القرآن عندما يحذف بعض الجمل إيجازا.

والقول الراجح عند الباحث:

إنّ (لا+ أقسم ب) يُعَدُّ بحدِّ ذاته أسلوباً في العربية لا تقاس عليه {لا} في باب {لا أضرب ولا أقتل}، وإن اختلفوا في تسمية {لا}.

إنّ هذا الأسلوب له دلالته ومعانيه يستعمله المتكلم حين يكون هناك إنكار من قبل السامع.

إنَّ {لا} في هذا الأسلوب ليست لنفي فعل {أقسم} وإنَّما يريد به المتكلم الفصيح إثبات القسم ، ويفهم هذا الإثبات أيضاً السامع الفصيح.

إنّما قلنا إنّ {لا} في {لا أقسم} لا تقاس على باب {لا} في {لا أضرب}؛ ذلك أنّ كل باب يُقاس عليه نظائره من بابه ، ولا يُقاس عليه نظائر الأبواب الأخرى ، فكما أنّ أسلوب المدح يجب فيه حذف المبتدأ حين تقول {نعم الرجل زيد}، ولا يلزم من هذا أن نحذف المبتدأ في المواطن التي يجوز فيها ذكر المبتدأ ، فكذلك {لا} قبل فعل القسم لا توجب نفيه في هذا الأسلوب وإن نفته في قولنا {لا أضرب ولا أجتهد} ؛ لأنّ هذين أسلوبين مختلفين لا يحمل أحدهما على الآخر ، وبهذا يندفع إشكال الرازي إذ قال" أن قوله {لا وأبيك} قسم عن النفي ، وقوله {لا أقسم} نفي للقسم، فتشبيه أحدهما بالآخر غير جائز ، وإنما قلنا: إنّ قوله {لا أقسم} نفي للقسم ؛ لأنّه على وزان قولنا {لا أقتل ولا أضرب ولا أنصر}، ومعلوم أنّ ذلك يفيد النفي"[1]

ومثل هذا في أنَّه لا يُقاس عليه إلّا ما يدرج في بابه سقوط {لا} النفي من فعل القسم في نحو قولهم ﴿ تَاللهِ تَفْتَأُ تَذْكُرُ يُوسُفَ ﴾{سورة يوسف/ ٨٥} أي لا تفتأ.

وقد اشترطوا لهذا الأسلوب شروطًا ثلاثة:

الأول: "أن يكون هذا الحرف {لا} دون سائر أخواته.

(١) ينظر مفاتيح الغيب،ج ٧١.

الثاني: أن يكون الفعل المنفي به مضارعا وأوردوا لذلك شواهد نحو:

فقلتُ يمينُ اللهِ أبرحُ قاعدا ❊❊❊ ولو قَطَعوا رأسي لَدَيك وأوصالي[1]

أي والله لا أبرح.

تالله أنسى مصيبتي أبدا ❊❊❊ ما أسمَعتنِي حَنينَها الإبلُ[2]

لا أنسى.

تا الله أنسى حبَّها ❊❊❊ حَيَاتَنا أو أُقبَرا"[3]

أي لا أنسى.

فهذا الأسلوب وإن كان خالياً من حرف النفي كما ذُكر إلا أنّهم يقدرون فيه {لا} النفي؛ وكما أنّ هذا التقدير لا يَرِدُ عليه أن تُقَدِّر {لا} في مواضع أخرى كـ{أضرب وأقتل} فكذلك ما نحن فيه ، أعني {لا أضرب} فلا يرد عليه أن نَعِدَّ {لا أضرب} مثبتا؛ لأن{ لا} إذا دخلت على الفعل المضارع نفته إلا أن يكون أسلوبا خاصا كما هو الحال هنا.

وأعني بالأسلوب الخاص أنّ السامع الفصيح حين يسمع {لا أضرب} يفهم منه النفي لكن حين يسمع {لا أقسم} يفهم منه الإثبات لأنه لا يحمل معنى {لا} في {لا أضرب} عليه.

وخلاصة القول:

كما أنَّ أسلوب {تا الله أنسى حبّها} يَفهم منه السامعُ أن معناه{لا أنسى حبّها} ، ولا يجعل على أساسه الإثبات في {أضرب} بمعنى {لا أضرب}، فكذلكّ {لا أقسم} فبما أنه أسلوب بحد ذاته، فيفهم السامع الفصيح منه الإثبات، ولا يجعل النفي في {لا أضرب} بمعنى {أضرب} حملا عليه ، وأحسب أنّ ما ذكرنا فيه الكفاية والله الموفق.

أما الدليل على أنَّه أسلوب بحدّ ذاته:

فكثرة استعمالها في القرآن واصرار جمهور المفسرين على أنّ معناه الإثبات لا النفي-

(١) ديوان امرئ القيس ، ١٣٧.

(٢) ديوان ذي الرمة، ٢/ ٧٤٩.

(٣) منحة الجليل بتحقيق شرح بن عقيل، محيي الدين عبد الحميد، ١ / ٢٤٦

وإن اختلفوا في توجيهها- يدلني على أنها أسلوب خاص ، فلو وردت مرة واحدة لأمكن تأويلها إلا أنّ شيوعها في القرآن يدل دلالة واضحة أنّها أسلوب فصيح يُفهم السامع إثبات القسم. ويبدو أنّها لها مزية على سائر صيغ القسم ؛ لأنّ كل أفعال القسم المسندة إلى لفظ الجلالة الله قد وردت مسبوقة ب{لا}حتى تكررت في القرآن الكريم ثماني مرات:

١- ﴿لَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ﴾{سورة الواقعة/ ٧٥}

٢- ﴿لَا أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ﴾{سورة الحاقة/ ٣٨}

٣- ﴿لَا أُقْسِمُ بِرَبِّ الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ إِنَّا لَقَادِرُونَ﴾{سورة المعارج/ ٤٠}

٤- ﴿لَا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾{سورة القيامة/ ١}

٥-﴿لَا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ﴾{سورة القيامة/ ٢}

٦-﴿لَا أُقْسِمُ بِالْخُنَّسِ﴾ {سورة التكوير/ ١٥}

٧- ﴿لَا أُقْسِمُ بِالشَّفَقِ﴾{سورة الانشقاق/ ١٦}

٨- ﴿لَا أُقْسِمُ بِهَٰذَا الْبَلَدِ﴾{سورة البلد/ ١}

وأمّا الدليل على أنّ معناها الإيجاب وليس للمنفي:

فقد عرفنا هذا من نقيضه فكما أنّهم عَدُّوا بعض الأساليب المثبتة منفية فليس بعيدا أن يكون هذا منها في أنهم جعلوا المنفي مثبتا كما أوردنا هذا آنفا وذكرنا له شواهد كقولهم:

تالله أنسى مصيبتي أبدا *** ما أسمَعتني حَنينَها الإبلُ

لا أنسى.

تا الله أنسى حبَّها *** حَيَاتَنا أو أُقبَرا"[1]

أي لا أنسى.

إنّ المقارنة بين قوله تعالى ﴿لَا أُقْسِمُ بِهَٰذَا الْبَلَدِ﴾{سورة البلد/ ١}، وقوله تعالى﴿وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ وهذا البلد الأمين﴾ {سورةالتين/ ١} تكشف أنّ المراد بقوله {لا

(١) ينظر: منحة الجليل بتحقيق شرح بن عقيل.

أقسم} أي أقسم وإلا كيف يجوز أن ينفي القسم في آية ، ثم يقسم به في آية أخرى ولو كان كذلك لزم منه التناقض؟

أجمع المفسرونَ على أن المراد بقوله {لا أقسم} و {أقسم} حتى قال الطبري "إن الجميع من الحجة مجمعون على أن قوله: ﴿لَا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ ﴾{سورة القيامة/ ١} قسم"[١] ، وقال السمرقندي ""أجمع أهل التفسير أنَّ معناه أقسم واختلفوا في تفسير لا"[٢]

ثم إنَّ القول إنّها تنفي القسم فمخالف لما جاء عمَّن يُعتد بفصاحته ويستشهد بكلامه فقد نقل الطبرسي أنَّ ابن عباس قال:" معناه: أقسم بيوم القيامة"[٣]

ففي مثل هذه المواطن كلام ابن عباس وفهمه للغة ، وأساليبها مقدم على كلام المفسرين الذين جلّهم لم يكونوا في عصر الاحتجاج[٤] ؛ وذلك أن اللغة والقواعد تثبت بكلام ابن عباس ، وأضرابه ولا تثبت بكلام من جاء في زمن تَفشَّ فيه اللحن والعجمة.

(١) جامع البيان عن تأويل القرآن، الطبري، ٧٣٥.
(٢) ينظر: بحر العلوم،٣/ ٥٢٠.
(٣) جوامع الجامع، الطبرسي، ٣/ ٦٨٠.
(٤) قال السيوطي في (الاقتراح ، ٢٠): أجمعوا على أنه لا يحتج بكلام المولدين والمحدثين في اللغة العربية. ثم ذكر فائدة(ص ١٢٢) قال: أول الشعراء المحدثين: بشار بن برد وقد احتج سيبويه في كتابه ببعض شعره تقربا إليه؛ لأنه كان هجاه لتركه الاحتجاج بشعره.

النتائج

أكثر هذه الآراء التي وردت في كلمات المفسرين يَرِد على بعضها الوهنُ مِن جهة، وعلى بعضها مِن أكثر من جهة فمثلا أن "لا" ردّ على كلام سابق، وقد تمسك أكثر المفسرين بهذا التقدير؛ وذلك لاستقامة المعنى لكنه يضعف مِن جهات: أولا لو كان الكلام ردّا على كلام سابقٍ، إذن لاحتيج إلى تبيينٍ أكثرَ ولَمَا جاء هكذا غامضا لايكاد يتضح لسامعه، ولا يُفهم مراده لأنّه واضح كالمبتور الذي لا يُدرى ما هو؟ ثم إنّه إذا كان هذا الكلام موجها إلى منكري البعث كما يتضح من سياق الآيات، فكيف يصح أن يقسم الله تعالى بالقيامة لمن ينكرها؛ بغيةَ أن يثبتها له فكيف يكون هذا؟، وكما هو معلوم أنّ المتكلم حين يقسم إنّما يقسم بأمور يقبلها المنكر ليتوصل بها إلى إثبات أمرا ينكره، ثم إنّ {لا} في هذا الأسلوب ليست لنفي فعل {أقسم} وإنّما يريد به المتكلم الفصيح إثبات القسم، ويفهم هذا الإثبات أيضا السامعُ، وأنّ كثرة استعمالها في القرآن الكريم، والعربية، واصرار جمهور المفسرين على أنّ معناه الإثبات لا النفي- وإن اختلفوا في توجيها- يدلني على أنها أسلوب خاص، فلو وردت مرة واحدا لأمكن تأويلها إلا أنّ شيوعها في القرآن يدل دلالة واضحة أنّها أسلوب فصيح يُفهم السامع إثبات القسم، ويبدو أنّها لها مزية على سائر صيغ القسم البلاغية؛ لأنّ كل أفعال القسم المسندة إلى لفظ الجلالة قد وردت مسبوقة ب{لا}حتى تكررت في القرآن الكريم ثماني مرات وقد مرّ ذكرها.

المصادر و المراجع

١. أنوار التنزيل وأسرار التأويل، عبد الله بن عمر بن محمد الشيرازي البيضاوي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٨هـ.

٢. بحر العلوم، محمد بن أحمد بن إبراهيم السمرقندي، الطبعة الأولى، سنة النشر:٢٠١٠م.

٣. البحر المديد في تفسير القرآن المجيد، أحمد بن محمد بن المهدي بن عجيبة، الناشر الدكتور حسن عباسس زكي، ١٤١٩هـ.

٤. التحرير والتنوير، محمد الطاهر بن محمد بن محمد بن عاشور التونسي، الدار التونسية للنشر، الطبعة الأولى، ١٩٤٨هـ.

٥. تفسير الجلالين، جلال الدين المحلي وجلال الدين السيوطي، دار الحديث، القاهرة، الطبع الأولى،١٩٩٨م.

٦. تفسير القرآن العظيم، إسماعيل بن عمر بن كثير الدمشقي، دار طيبة للنشر والتوزيع، الطبعة الثالثة، ١٤٢٠هـ.

٧. تفسير جوامع الجامع، أبو علي الفضل بن حسن الطبرسي، مؤسسة النشر الإسلامي التابعة لجامعة المدرسين بقم، الطبعة الثانية، ١٤٢٣هـ ق.

٨. جامع البيان عن تأويل آي القرآن، محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب الآملي الطبري، دار هجر للطباعة والنشر والتوزيع والإعلان، الطبعة الأولى، ١٤٢٢هـ.

٩. الحجة للقراء السبعة، أحمد بن عبد الغفور الفارسي، دار المأمون للتراث، دمشق، بيروت، الطبعة الثانية، ١٤١٣هـ.

١٠. ديوان امرئ القيس، امرؤ القيس بن حجر بن الحارث الكندي، دار المعرفة، بيروت، الطبعة الثانية، ١٤٢٥هـ.

١١. ديوان ذي الرمة، نصر بن أحمد بن حاتم الباهلي، مؤسسة الإيمان، جدة، الطبعة الأولى، ١٤٠٢هـ.

١٢. زاد المسير في علم التفسير، عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي، دار الكتب العربي، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٢٢هـ.

١٣. فتح القدير، محمد بن علي بن محمد بن عبد الله الشوكاني، دار الكلم الطيب، دمشق، الطبعة الأولى، ١٤١٤هـ.

١٤. الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل، جار الله الزمخشري، دار الكتب العربي، بيروت، الطبعة الثالثة، ١٤٠٧هـ.

١٥. التفسير الكبير أو مفاتيح الغيب، محمد بن عمر بن الحسن بن الحسين التيمي الرازي، دار إحياء التراث العربي، بيروت الطبعة الثالثة، ١٤٢٠هـ.